ديـوان

غايةَ المراد من زاد المعاد

للشاعر/ حسن طلب

حقوق الطبع والنشر محفوظه
لدار الأديب للنشر والتوزيع

اسم الـــدار	دار الأديب للنشر والتوزيع
اسم الديوان	غاية المراد من زاد المعاد
اسم الشاعر	د. حسن طلب
رقم الإيداع	(٢٠١٧/٢٦٧٦٠) بدار الكتب المصرية
الإخراج الصحفي	دار الأديب
الإصدار	(طبعة **ثالثه** ٢٠١٩)

ديوان

((غايةُ المُراد مِن زادِ المَعاد))

شعــر

د. حسن طلب

كتبت قصائد هذا الديوان بين عامى: ١٩٨٨/ ٢٠٠٨

إهداء

إلى سائر مَن سبقوا
مِن ساعٍ على آثارهم.

مرثية كل البشر

إلى ذكرى: **نجيب سرور** (١٩٣٢– ١٩٧٨).

حَذَارِ.. فهذهِ ليستَتْ بَنفْسَجَةً..!

ولكنْ رجع حَشْرَجَةٍ

لِمُومياءِ الشَّقِيِّ الآدَمِيِّ..

وقد تَخلَّلَها الهواءُ

فَسادَ فيها- أو يَكادُ- فَسادُ أنْسِجَةٍ

ونَفحُ زُهومَةٍ قد فاحَ واستَشْرَى

ويَأسٌ رانَ..

بعدَ مُكابداتِ عُبورِ أَسْوِجَةٍ

أجَلْ.. ليستَتْ بَنفسَجَةً ولا عِطْرَا..!

*** *** ***

دِيكٌ فَصِيحْ

أرادَ أنْ يُعلِّمَ الصِّغارَ.. والكِبارْ!

سمِعتُهُ يَصيحْ

فى ظُلُماتِ ليْلِ عصْرِ العارْ:

أنْ أَوْصدِ البابَ الذى:

تَأتِيكَ مِنهُ الرِّيحْ

لِتَستريحْ!

رَجمْتُهُ بالنُّورِ والأشْعارْ

قاومْتُهُ بالنّارْ

تَركتُهُ جَريحْ

خَلَّفتُهُ وهْو بأعلَى صوْتِهِ يَصيحْ!

فمَا أشدَّ حاجَتى لِلرِّيحِ..

آهِ.. ما أشدَّ حاجَتِى للرِّيحْ!

*** *** ***

تلكَ حِكايتِى

وصيَّتى لكُمْ يا من تُشيِّعوننَى

أنْ تجْعلُوها:

شاهِدَ الضَّريحْ!

ربيع ١٩٨٨.

تنقيح لمسودة قديمة تعود إلى تاريخ وفاة الشاعر (أكتوبر ١٩٧٨).

لِـقــا ءُ عـا شِقـيْـن

إلى روح الشاعر **على قنديل** (١٩٥٣- ١٩٧٥)

بَدَارِ.. فهذهِ ليستْ بَنفْسَجةً!

ولكنْ رَجْعةٌ أُخْرَى

إلى مُستَقبَلِ الذِّكرَى!

وتَشوِيهٌ لِتَشبِيهٍ

وتَشبِيهٌ لِتَشويهٍ بِتِيهٍ

وهْى بالأَحْرَى:

صَلاةٌ دُونَ تَأْلِيهٍ

وسعْىٌ فوقَ خيْطِ دمٍ تَعَرَّى!

هذه ليسَتْ بَنفْسَجَةً.. ولا زَهْرَا!

(١)

قَصِيدتِى أُغْنيَةٌ مُعلَّقَهْ
فى حبلِ مِشنَقَهْ
ورِيشتِى سفينةٌ فى الوحلِ غارقَهْ!

لنْ أكتُبَ الأشعارَ..
فالأخبارُ فى مَدينتِى: مُلفَّقَهْ!

(٢)

النَّاسُ فى مَدينتِى تنامُ واقفَهْ!
تموتُ أو تعيشُ فى جُحورِها
صَحِيحةً.. سَقِيمةً
واجِمةً كاللَّيلِ فى مَدينتِى
مُخِيفةً.. وخائِفَهْ!

لنْ أكتُبَ الأشعارَ..
فالأخبارُ فى مدينَتِى:
صَحيحَةٌ.. وزائفَهْ!

(٣)

الصَّمتُ كانَ فوقَ رأسِى: مِطْرقَهْ!
والحُزْنُ كانَ شَرنَقَهْ
تَفجَّرتْ نهْرَ دُموعٍ ودمٍ
مِن مُقْلتِى المُؤرَّقَهْ!
والموتُ كانَ وُجْهتِى!

عانَقتِى..
عانقتُهُ
كعاشِقٍ.. وعاشِقَهْ!

أغسطس ١٩٨٧.
(فى الذكرى الثالثة عشرة لرحيل الشاعر)
عن مسودة قديمة- غير مكتملة- منذ وفاته
(صيف ١٩٧٥).

أَرْبَعُ لَوْحاتٍ رَمادِيَّة

إلى ذكرى: صلاح عبد الصبور (١٩٣١- ١٩٨١).

حَذَارِ.. فهذهِ ليستْ زَبَرجَدَةً
ولكنْ فيْضُ مَوْجدَةٍ
ودَمْعٌ لا يَغِيضُ.. وزَفْرَةٌ حرَّى
وتَجْوِيدٌ لآهاتٍ مُردَّدَةٍ
لِتَعْويدِ الفُؤادِ بِها
على أنْ يَنظِمَ الأشْعارَ مِن دَقَّاتِهِ
سَطْرًا فسطْرًا
ثُم يُنْشِدُها على أَلحانِ أحْزانٍ مُجَدَّدَةٍ
أجَلْ.. ليستْ زَبرجَدَةً ولا دُرًّا!

*** *** ***

(١)
تشـــخيص

أمْسَكَ رِيشةً وخَطَّ:

السَّمَكُ الكبيرُ

يَأكلُ الصغيرْ

والدُّودُ يَحيا والطُّفيْلِيَّاتُ..

فى مُستنقَعِ العصْرِ

ومِصرُ امتلأتْ بجُثَثِ الغَرْقَى

ولم يَبقَ سِوَى اللُّصوصِ والحَمْقَى!

يَسوسُونَ البلادَ وحدَهمْ

ويَنْهبُونَ الدُّورَ والقُصورْ!

هذا هُو الخرابُ.. لا مَناصْ

وليسَ مِن خَلاصْ

فنحنُ كلُّنا.. على بَكْرَتِنا

نَـهوِى إلى مَصيرِنا الأخيرْ!

صعَدَ مِنبَرًا وقالَ:
هلْ تُرَى تُفيدُ
هذهِ السُّطورْ؟

(٢)

تمحيــص

ما زالَ- وحدَهُ- يَسِيرْ
ولمْ تَزلْ هيْئتُهُ هيئتَهُ
مُمتشِقًا ريشتَهُ
فى الشَّارِعِ المُكتَظِّ بالأجْسادِ
والأنْفاسِ..
أو فى الواقِعِ الذى يُموِّهُ الغِيابَ
بالحُضورْ!

ما زالتِ القَصيدةُ النَّفُورْ:
لُغزًا عصِيًّا هارِبًا كالسِّرِّ..
بينَ القلْبِ والضَّميرْ!

تَدْنُو.. وتَنْأَى!
فهْى محْضُ هَمْهَماتٍ
غامِضاتٍ واضِحاتٍ!
رُوحُها مُوحًى
نعَمْ.. لكنَّما ألفاظُها ليستْ بِمُوحاةٍ!
ولا يَزالُ مُتعَبًا يَسيرْ

وفجأةً..
أوقفَ نفسَهُ أمامَ مَتْجَرٍ
أتَى بِمِمْحاةٍ
مَحَا ما خطَّهُ
صعَدَ فوقَ مِنْبرٍ

إليْهِ نادَى رَهْطَهُ
وصاحَ: كلَّا
لنْ تُفيدَ هذه السُّطورْ!

(٣)

تخصيـــص

كضَفادِعِ القنَوَاتِ حِينَ تَنِقُّ:
«نحنُ مُوافِقونْ»
هَزُّوا رُؤوسَهُمُ الثِّقالَ
وأَغْمَضُوا حدَقَ العُيونْ!

يا أيُّها الرَّهْطُ الحَزِينْ
أنا لستُ مِنكمْ فاغْرُبوا عنِّى
وعِيشُوا كالعَجائِزِ هاهُنا:
هَيْنُونَ.. لَيْنُونَ!
الْعَنُوا الدُّنيا.. وسُبُّوا الدَّهْرَ

أنتمْ تَستحِقُّونَ المَذلَّةَ أجْمَعِينْ!

فلْتنعَمُوا بهَوانِكمْ..

فى ذلكَ البَلَدِ المَهِينْ!

(٤)

تلخيص

مَن قالَ:

إنَّ التُّوتَ يُورِقُ فى الرَّبيعْ؟

كَذِبٌ.. أجَلْ كَذِبٌ شَنِيعْ!

فلسوفَ يَبْقَى تُوتُنا العارِى بلا ورَقِ

سيبْقَى هكذَا

ما دامَ بينَ ضُلوعِنا

هذا الصَّقِيعْ!

صيف ١٩٩١.

(فى الذكرى العاشرة لرحيل الشاعر)؛ عن

محاولات أقدم لم تتم.

مَن يملِكُ البُشرَى..؟

إلى روح: جمال حمدان (١٩٢٨– ١٩٩٣).

حَذارِ.. فهذه ليستْ زبَرْجدةً
ولكنْ فيْضُ وَسْوسةٍ
وتلويحٌ بأعلامٍ مُنكَّسةٍ
وتعريفُ انتصارٍ بانكسارٍ
واختصارُ هزيمةٍ فى زفْرَةٍ حَرَّى
أو استحضارُ شعبٍ فى زُمرُّدةٍ
وتأريخٌ لأفئدَةٍ بأسنِدَةٍ مُؤكَّدةٍ
وعزْلُ جُروحِها: كُلًّا على حِدَةٍ
لتُوضعَ فوق مِنضدَةٍ
مِن استْهلالِ تمثيليَّةِ الحرْبِ الأخيرةِ..
واختتامِ فُصولِها بتبادُلِ السُّفراءِ
قبلَ تبادُلِ الأسْرَى
إلى استشهادِ أُغنيَةٍ على جُثمانِ مُنشدةٍ مُغرِّدَةٍ

وسِيرةُ أُمَّةٍ: مِن سبْيِ سيِّدةٍ
إلى مأساةِ شاتيلا وصبْرَا!
أجلْ.. ليستْ زبرجدةً ولا أمْرَا

*** ***

مَن يَملِكُ الأجْرَا؟
لأبِيعَهُ النَّصْرَا!

*** ***

أجلْ ليستْ زبرجدَةً
ولكنْ رَجْعُ تلبيَةٍ
وتعْزِيةٌ بتعْرِيةٍ لِتوْرِيَةٍ
لكى يتكاشفَ الأحياءُ والموتَى
فيشكُو بَثَّهُ مَن عاشَ مُضْطرًّا
إلى مَن ماتَ مُضطرًّا!
أجلْ ليستْ زبرجدةً.. ولا شِعْرَا!

*** ***

مَن يملِكُ الأُولَى؟

لأبيعَهُ الأُخرَى!

*** ***

أجلْ.. ليستْ زبرجدةً

ولكنْ محْضُ تهيئةٍ

وتوْطِئةٌ لتبرئةٍ بتخْطِئةٍ

ودفعُ هزيمةٍ بهزيمةٍ أَزْرَى!

أو استنساخُ سيِّئةٍ بسيئةٍ

ورُوحُ حضارةٍ عبْدٌ

يُصادِرُ جِسمَها الحُرَّا!

*** ***

مَن يملِكُ الشرَّا

لأبيعَهُ الخيْرَا!

*** ***

أجلْ.. ليستْ زبرجدَةً ولا دُرَّا

ولكنْ محضُ توْبيخٍ

وتشدِيخٌ لِيافوخٍ بِسيخٍ

واجترارُ حِكايةِ الهِرِّ الذى هزمَ الهِزبْرَا!

وإنها مشروعُ تنظيفٍ بتوْسِيخٍ

وتفريخٌ لدَجَّالٍ مَسيخٍ

يملأُ الأرضِينَ ذُعرًا

لا يُغادِرُ مِن صَريخٍ!

وهْى نِصفُ حقيقةٍ حُلوٌ

يُلاوِطُ نصفَها المُرَّا!

*** ***

مَن يملكُ المَجْرَى

لأبيعَهُ النهْرَا!

*** ***

أجَلْ.. ليستْ زبرجدةً.. ولا شِعْرَا

ولكنْ مُلتقَى ناريْنِ:

نارٍ أوشكَتْ تأتِى.. وأُخرَى شبْهِ مُوشِكةٍ

وقد آنسْتُ مِن كِلْتيْهما: شررًا.. وشرًّا!

قلتُ سوف أُريكَ ما قد ساءَ أو سَرَّا:

عَتادًا دُون معركةٍ

وجُمهوريَّةً فى زِىِّ مملكَةٍ

وبدْرًا ميِّتًا بجوارِ ليْلكَةٍ

ونـهرًا غادرَ المَجْرَى!

*** ***

مَن يملكُ السِّعْرَا

لأبيعَهُ مِصْرَا!

*** ***

أجلْ.. ليستْ زبرجدةً ولا نثْرَا

ولكنْ محْضُ فذْلكَةٍ!

وتأفِكَةٌ لكلِّ يدٍ

بغيْرِ الجَمرِ مُمسِكةٍ!

وتلخيصٌ لهذى الحِكمةِ الكُبرَى:

ألَا كلُّ ابنِ أنثَى صائرٌ يومًا لِتَهلُكةٍ

ولا سِيَما إذا كانتْ:

عربيَّةَ الميلادِ والمَسْرَى!

*** ***

من يملِكُ البُشرَى

لأبيعَهُ ما ليس يُشْرَى!

*** *** ***

ربيع ١٩٩٣

يَقِينُ الأَمَان

إلى روح: شكرى عياد (١٩٢١- ١٩٩٩).

أمسِ قابلْتُهُ عندَ حافَّةِ هذا المكانْ!

كان يَعبُرُ ميدانَ سُوق الخَطابةِ..

وهو يَحُثُّ الخُطَى.. ويهُشُّ طنينَ الذُّبابةِ

فاستوقفَتْهُ على البُعدِ:

ضوضاءُ كوكبةِ الرَّاكِضِينَ إلى المِهرَجانْ

فتبسَّمَ..

وهْو يُصرِّفُ بالقولِ أمثِلَةً مِن فنونِ الدُّعابةِ:

هذا هُو القبْحُ يَزْدانُ..

لا تلتَمِسْ يا بُنىَّ النَّجاةَ هنا

لا يغُرَّنَّكَ السِّرْبُ وهْو يَفِرُّ مِنَ الشرق للغرْبِ..

يَستبدِلُ الحِزْبَ بالحزْبِ!

هذا القَطيعُ: يُحرِّكُهُ الخوفُ والجُوعُ!

أقْسمْتُ يا ابْنِى عليكَ بنُونِ النَّجابَةِ..

إنَّكَ والحرْفَ نِدَّانِ
حَلِّقْ إزاءَ السَّماءِ.. وحقِّقْ جُنونَ الكِتابَةِ
أطْلِقْ كمَا تَشْتَهِى لِليَراعِ العِنانْ!
إنَّهُ لا يُفيدُ بحِبْرٍ جَرِىءٍ
يَراعٌ جَبَانْ!

ومَضَى يَتكلَّمُ..
قد كانَ فى صوْتِهِ ما يَهيجُ دَفِينَ الكآبةِ:
لا تَتَّبِعْ مَن تَسلَّقَ فوقَ الرِّواق
ولا تنخدِعْ بنِفاق المُهرِّجِ.. والقَزْمِ..
والقَهْرمانْ!

إنَّهُ حِلْفُهمْ
سيُردِّدُ أعضاؤُهُ ما سمِعْناهُ بالأمْسِ
مِن سادةٍ قبْلَهمْ
وأنا ضِقتُ ذَرْعًا بكُلِّ لُحونِ الرَّتابةِ
بالصَّخبِ الفَجِّ مِن حوْلِهمْ!

إنَّـهُ حفْلُهمْ

قد أعَدُّوا لـهُ: الشَّمعَ.. والشَّمْعِدانْ!

وأتَوْا يَخْطِرونَ على رِسْلِهمْ

معَ جمْعِ المُغَنِّينَ والرَّاقصِينَ..

وكلِّ عُيونِ العِصابةِ..

والسيِّداتِ السِّمانْ!

ثُم قالُوا..

فجاءُوا بقِيراطِ حَقٍّ.. وفَدَّانِ بُهْتانٍ!

انْصرَفوا بعدَ أنْ لعِبُوا

ليْتَهمْ يَعلَمونَ على جهْلِهمْ

أنَّهمْ يَكتُبونَ.. إذا كَتبُوا

بِيَراعٍ أجِيرٍ.. وحِبْرٍ مُدانْ!

إنَّـهُ القُبحُ يَزْدانُ!

قالَ.. وفى صوْتِهِ ما يُذكِّرُنى بحَنينِ الرَّبابةِ:

آهِ مِنَ الذِّكْرَياتِ إذا دَهَمتْنا على غِرَّةٍ

بشُجُونِ الصَّبابَةِ!

كمْ فى الجَوانِحِ مِن جمرةٍ!

آهِ مِن هؤلاءِ البَناتِ النِّحافِ اللِّدَانْ!

كِدْنَ يَصْرِفْنَنى اليومَ عن صاحبٍ

سوف يُرشِدُنى

فى الدُّجَى الغيْهَبِىِّ

كأنِّى بهِ قد أرادَ النَّبىَّ!

وعنْ راهبٍ سيُبارِكُنى

ربَّما كانَ يَعنِى بهِ: المَعْمِدانْ!

كنتُ أسْألُهُ

وهْو يَدفعُ صُوَّانَ كلِّ سؤالٍ بِلِينِ الإجابَةِ!

يَصمُتُ حينًا

وفى صمْتِهِ ما يُذكِّرُنى بهُتُونِ السَّحابَةِ!

ثُم يَقولُ: نعَمْ يا بُنَىَّ..

فإنْسانُ هذا الزَّمانْ

طائرٌ حائرٌ فى فَضاءٍ مِنَ الشَّكِّ
غيْرِ مُضاءِ!
فكيفَ سيَضْرِبُ فى مَهْمَهٍ!
كيفَ وهْو إلى عَدَمٍ مُنْتَهٍ
رُوحُهُ حُــرةٌ
والجَنَاحانِ عَبْدانِ!

كيفَ يُحلِّقُ فى ظاهِرِ الجَوِّ
مِن غيْرِ إيمانٍ؟
المرْءُ كيفَ سيُصلِحُ ظاهِرَهُ
دُونَ إذْعانِ باطنِهِ لأمَانِ اليــقينِ
وإنْ شئتَ قلْ:
لِيَقينِ الأمانْ!

لا تَخفْ يا بُنَىَّ علىَّ
يَقولُ.. وفى سمْتِهِ ما يُذكِّرُنى
بأساريرِ كُهَّانِ مصْرَ

وسمْتِ عُيونِ الصَّحابةِ:

لا.. ليسَ لِلموْتِ نابٌ لِينْهَشَ

كلّا.. وما مِن يَدَيْنِ ليبْطِشَ!

لا تَخْشَ شيئًا علىَّ بُنَىَّ!

فقد كنتُ مِن سنَواتٍ أُدرِّبُ نَفْسِى على الموْتِ!

أهــرُبُ مِن وحْشتِى فى ليالِى الشِّتاءِ

وأرقُدُ وحْدِى على عُشْبَةٍ خارجَ البيْتِ..

نَعْسانَ.. يَقْظانَ!

حتّى يَجىءَ إلىَّ.. ويَظْهرَ لِى

فى غُضونِ الغَيابةِ!

يَسبَحُ بِى فى الفَراغِ الرَّهيبِ

وكنتُ أجوبُ..

وأسأَلُ عمَّا وراء حِجابِ الغُيوبِ

فأسمَعُ صوْتَ السَّماءِ

يَكادُ يُجِيبُ..

يكادُ يُكلِّمُنى الفَرْقَدانْ!

لا تَخَفْ يا بُنَيَّ.. وقلْ: إنه الموتُ
لا يَقْتضِى منكَ غيْرَ سُكونِ المَهابةِ..
أقْسَمْتُ يا ابْنِى عليكَ
بما فى تَوابيتِ أجْدادِنا مِن مُتونِ "العَرَابَةِ"..
بالكاتِبِ الجالِسِ القُرْفُصاءَ
وبالهَرمِ المُتَدرِّجِ..

أَقسمْتُ.. فالموْتُ ليسَ الفَناءَ
ولكن مُجرَّدُ فِقْدانِ بعْضِ الأحِبَّاءِ..
إيفاءِ بعضِ دُيونِ القَرابةِ
حتّى تُرَدَّ الهِباتُ!
الحَياةُ- معَ الشَّكِّ- قيْدانِ!
والآنَ أشعُرُ أنِّى تَحرَّرْتُ.. أبْحَرْتُ
صرْتُ بَريئًا مِنَ الدَّفْعِ والشَّدِّ!
شاهدْتُ طرْفَ الصِّراطِ..
فسِرْتُ مع الحَشْدِ!

كانَ رَفِيقَ طَرِيقِى: صَدِيقى ابنُ رُشْدَ
وبعْضُ الثِّقاتِ مِنَ الطَّيِّبِينَ القَلِيلِينَ:
شيخُ المَعَرَّةِ.. طاغُــورُ.. ذُو النُّونِ..
إنَّ أولئكَ لا خوْفَ يومَ الحِسابِ عليهِمْ
ولا يَحزَنُونَ!

سأسْأَلُهمْ عن صَدِيقى ابْنِ خَلْدُونَ
لكنَّنى لنْ أتَعجَّلَ رَدَّ السُّؤالِ!
وسوفَ أقولُ لـــــ "بَسْكالَ":
ها أنَذَا قد كسَبْتُ الرِّهانْ!

*** *** ***

إنَّهُ القُبحُ يَزْدانُ!
لكنَّهُ سوفَ يَعْرَى ويُبْلِسُ.. مَهْما تَلبَّسَ
مَهما تَكلَّسَ مِن طبَقاتِ الدَّمامَةِ..
لا بدَّ لِلصُّبْحِ أنْ يَتنفَّسَ
مِن خلْفِ تلكَ القَتامةِ.. أو طَبقَاتِ الدُّخانْ!

قلْ غَدٌ.. أو غدَانْ
حيثُ نُصبحُ قد شَهِدَ الشَّاهِدانْ
وصارَ المَدَى ورْدَةً كالدِّهانْ!
وجاءَ الجَزاءُ كجِنْسِ الأَداءِ
فإمَّا العِقابُ.. وإمَّا فُنونُ المَثابةِ..
إمَّا الهَنَاءُ.. وإمَّا الهَوانْ!
وحُمَّ القَضاءُ.. لِيَقرُبَ ناءٍ
ويَبعُدَ دَانْ!

أغسطس
١٩٩٩.

زَادُ المَعَاد

(سيرة شعرية لشخصية أدبية)

إلى روح: رجاء النقاش(١٩٣٤- ٢٠٠٨)

فاتحة الزاد

تلكَ أيَّامُ أقْلامِ أهْلِ الغَرَضْ!
تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرضْ!
وأنا الآن أنتظرُ الإذْنَ لى بالرَّحيلِ..
ورُوحِى على وشْكِ أنْ تَتلقَّى الإشارَةَ
هذا المَساءَ
ولكنَّنِى أَلمَحُ الأهْلَ والأصدقاءَ
فلا أستَطيعُ سِوَى أنْ أُردِّدَ تلكَ العِبارةَ
ما دامَ فىَّ لِسانٌ تحرَّكَ
أو بينَ جَنْبىَّ قلْبٌ نَبضْ!

(أ)

تلكَ أيَّامُ أقْلامِ أهلِ الغَرضْ!

هكذَا كنتُ فى مِحْنَتِى أنْتَحِى
وأُحدِّثُ نفْسِى
وكم كنتُ أحْتالُ.. حتّى أُروِّضَ يأْسِى!
فأشعُرُ- فى مَرضِى- أنَّنى:
لمْ أكُنْ قَبلُ قطُّ صَحيحًا مُعافًى
كمثلِىَ هذا المَساءَ..

أُحدِّثُ نفْسِى لِتَنسَى-على بطْشِهِ- الدَّاءَ..
تنْسَى الدَّواءَ..
وما كانَ مِن أحَدٍ يَتطلَّعُ..
ما كانَ يَسمَعُ غير صَديقِى الوَحيدِ
صَديقى اللَّدُودِ: المرَضْ!

(ب)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ!
وأنا اليومَ فى شُغُلٍ عن عَداءِ أُولاءِ
وعن مقتِهِمْ!
جُمعَتِى بَرِئتْ- لا أُريدُ الإساءةَ-
كلَّ البَراءةِ.. مِن سَبْتِهِمْ!

وعلى عجَلٍ
تَتدفَّقُ أطْيافُ بعْضِ الرُّؤَى
تَتراقَصُ.. ثُم تَغيمُ تفاصِيلُها
وأنا أتعلَّقُ مثلَ الغَريقِ بها!
وأُرَنِّقُ فى الرَّمَقِ الآخِرِ..
حيثُ شتَّى الخواطرِ تأتِى إلىَّ..
وأوشكْتُ أَخرجُ مِن وقتِهِمْ!
ليسَ لِى فيهِ شىْءٌ.. وليسَ علىَّ
ولكنْ سأُغمِضُ عينىَّ.. أغفُو قليلًا
لِأجعَلَ آخِرَ ما ستجودُ بهِ مُهجتِى:

نَظَراتِ الوداعِ إلى زوجتِى

رُبَّما فى غدٍ: آنَ أنْ أَستريحَ
وسوفَ أكلِّمُ بِنتِى "لَمِيسَ"
أوِ ابْنِى "سَمِيحَ"
كما والِدِى كانَ- يومَ الرَّحيلِ- يُكلِّمُنى

سأقولُ: اذْكُرا اليومَ جَدَّكُما
فهْو أوَّلُ مَن كانَ علَّمَنى
ثُم ألْهَمَنى القابِضونَ على الجمْرِ
فى زَهرةِ العُمرِ
والأنبِياءُ..

وصوْتٌ مِن العُمق.. بالصِّدْق ألزَمَنى
قلتُ: فَلْتلتزِمْ يا "رجاءُ"
عليكَ بهِ ما استطعْتَ..
إذا قُلتَ.. أو إنْ فَعلْتَ

وإنْ هُرِعَ الباحثونَ عنِ الأجْرِ
أو ركَضوا نحوَ بوَّابةِ القصْرِ..
قفْ حيثُ أنتَ
فلا يُذكَرُ اسمُكَ فيمَنْ ركَضْ

(ج)

تلك أقلامُهمْ
كنتُ فى سالِفِ العمْرِ آنَفُ مِن قُربِهِمْ
كنتُ أَزْوَرُّ عنهُمْ وعن صَحبِهِمْ!
فإذا ظَهرُوا لِى أمامَ مَقرِّ الصَّحيفَةِ فى مرَّةٍ
أَستدِيرُ..
وإن عَثَروا بى هُنا أو هناكَ.. على غِرَّةٍ
أمْتعِضْ!

(د)

تلكَ أيَّامُ أقْلامِ أهلِ الغَرضْ
وأنا الآن فى شِبهِ غَيْبوبةٍ

أَتَطوَّحُ عبرَ المَسافةِ ما بينَ جَهلِى ومَعرِفَتى
وأُعانِى احْتضارَ الحُروفِ على شَفَتِى
مِن دُعاءٍ.. ومِن تَوْبةٍ!

هكذا صِرتُ مُسْتسلِمًا
لمُداهَمَةِ القاتلِ السَّرطانِىِّ..
كمْ نَوْبةٍ مِنهُ قد أسْلمَتْنِى إلى نَوْبةٍ!
فجوارِحُ جِسْمِى تئِنُّ
ولكنَّ رُوحِى علَى أُهبَةٍ
لِرحيلى إلى خالِقى أستعِدُّ..
أَعُدُّ الدَّقائقَ مِن لَهْفتِى لِلِّقاءِ..
فيا رَبُّ ما لِلدَّقائق ليستْ تُعَدُّ!
فتَمضِى بِطاءً.. ثِقالًا
وأيامُ عهْدِ الشَّبيبَةِ كانتْ عِجَالًا
تَمُرُّ سِراعًا.. تِباعًا!

وكنتُ فتًى قَرويًّا يَخافُ المدينَةَ..
لم يَمتلِكْ مِن حُطامِ الحَياةِ مَتاعًا
ولمْ يَعرفِ اليأسَ بَعدُ!
وكنت أقولُ لنفسِيَ:
لنْ أترُكَ الفقرَ يَنصرُ ضعْفِي على قُوَّتِي!
فأنا مُرْتَجَى أُسرَتِي.. وأَبو إِخْوَتِي!
(وأوَدُّ مِنَ الدَّهرِ ما لا يَوَدُّ)

وقلتُ لَها: أهْوَنُ الأمرِ قد مَرَّ..
لكنْ سيأتِي الأشَدُّ!
كذلكَ هيَّأتُها للذى جَدَّ مِن نائباتِ الحياةِ..
وما يَسْتجِدُّ..

وكم كنتُ مِن محْضِ فيْضِ الهَوَى أستَعِيرُ!
ومِن فِطْرتِي أسْتمِدُّ..
فلمْ أنْخدِعْ فى حَياتِي سِوَى مرَّتيْنِ:
فتلكَ الفتاةُ التى:

كنتُ كلَّمْتُ عنْها المَساءَ.. فأنْصَتَ..
والعادِلُ المسْتبِدُّ!

وآهٍ.. فلو كانَ ما قدْ مَضَى يُستعادُ
وبعضُ الذى مَرَّ مِن عُمرِنا يُستردُّ!
ولكنْ قَضَى اللهُ ما قد قضَاهُ..
وكانَ الذى لمْ يكُنْ منهُ بُدٌّ
ولا حولَ لِى كى أوافِقَ..
أو أَعترِضْ!

(هـ)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهْلِ الغَرضْ
كنتُ فى مَرَضِى أتعلَّلُ
مُحتمِيًا بدواءٍ عَسَى.. ولَعلَّ.. وقدْ
وأُؤمِّلُ فى (قَلَّما)
كلَّما عِيلَ صَبرِى!
أقولُ: نعمْ

ربَّما فازَ مَن كانَ بالمُستحِيلِ احتَمَى!

هكذا كنتُ أبْدُو لكُمْ هادئًا هانئًا
وأواظِبُ- كنتُ- على خطِّ سيْرِى!
أُراقبُ سعْىَ الورَى
وأُعارِضُ ما كانَ يَجْرِى
بما قد جَرَى:

هلْ أَصابَ القُلوبَ العَمَى؟
رُبَّما!
وهلِ اقتلَعَ الشَّجَرَ الوارِفَ الظِّلِّ فى أرْضِنا:
بَعْضُنا؟
ونَباتُ المُروءَةِ والخيْرِ أهلكَهُ مُهلِكٌ؟
فليكُنْ!
هلْ تُرَى جَفَّ نبْعُ الأمانَةِ؟
هلْ نَضَبَ الماءُ
فى قاعِ بئرِ الفضيلةِ؟

فلنفترضْ!

لِتكُنْ أنْتَ: أنتَ..

وقلْ إنْ تكلَّمْتَ:

لا ما يَشاءُونَ.. بلْ ما تَشاءُ..

احترِسْ يا "رَجاءُ"

وإنْ ولَغُوا فى السَّخائمِ..

أو خاضَ غَيرُكَ فى فاحِشٍ.. لا تَخُضْ!

(و)

تلكَ أيَّامُهمْ!

هِى أيَّامُ مَن نَقَشُوا فى سَماءِ المدينَةِ:

أسماءَ حُكَّامِهِمْ!

هىَ دوْلَةُ أمثالِهمْ

فُرصةُ العمْرِ واتَتْ لِتَحقيق أَحْلامِهِمْ

حينَ يُجْهَضُ حُلمُ البِلادِ!

وقد عَرَفَ النَّاسُ قَبلِى المُداراةَ..
واخترَعَ القُدماءُ: التَّقِيَّةَ
ماذا علىَّ إذا كنتُ أدَّيْتُ يومًا
لِبَعضِ الطُّغاةِ التَّحيَّةَ!
ماذا إذا كنتُ أدَّيْتُها لِوُلاةِ الأُمورِ!
إذا كنتُ حَيَّيْتُ
ثُم انحنيْتُ أمامَ سُمُوِّ الأميرِ!

لكَمْ كنتُ أدفِنُ فى أضْلُعِى كلَّ مَوْجِدَةٍ
وأقولُ لِنفْسِى على حِدةٍ:
يا "رجاءُ" اجتنِبْ هؤلاءِ..
ويكفِيكَ: ما يَعتريكَ- إذا نِمتَ فى ليلةٍ-
مِن جَحيمِ الكَوابيسِ!
ما لِى أنا بأباليسِ ليْلِ الفَسادِ الذى:
فوق أجسادِ أحلامِنا قد ربَضْ!

(ز)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ!
كنتُ أعرِفُهمْ بالسَّليقَةِ..
كنتُ- وما زلتُ- أصدُرُ عن فِطْرَتِى
فى التِماسِ الحقيقةِ
ثم تغيَّرْتُ.. غيَّرْتُ مِن نظرتِى

قلتُ: لا يَرزُقُ اللهُ..
إلّا إذا اجتهدَ العبْدُ..
ثُم تطوَّرتُ.. طوَّرْتُ مِن فِكرتى

لم يكنْ "سارتر" الفيلسوفُ
ولا "ماركس" الرُّؤيَوِىُّ المُخيفُ
الذى عبدَتْهُ الأُلوفُ!
ولكنْ هُو "المتنبِّى" الذى طارَ لُبِّى بآيتِهِ:
(الضِّدُّ يَبعثُهُ الضدُّ)!

قلتُ: اسْتبانَ الطَّريقُ إلى (البعثِ)..

لا وجْهَ للبحْثِ!

ثُم الْتفَتُّ إلى جانبِى

قلتُ للشاعِرِ المُستَهامِ بلُؤلؤةِ المُسْتحيلِ:

صَباحُ العُروبَةِ يا صاحِبِى!

قالَ: إنِّى سأُنشِدُكَ اليومَ:

(مرثيَّةً للزَّمانِ الجَميلِ)..

فأنصتُّ مُندهِشًا.. وهْوَ يَشدُو!

فلمَّا انتَهَى قلتُ:

يبدُو كأنَّا انْخدَعْنا معًا قالَ: يَبدُو!

هَلُمَّ بِنا قبلَ أنْ تتَفشَّى المَجاعةُ..

ثُم انْبَرَى فجْأةً:

يا أخِى كيفَ تَحْيا الجَماعةُ..

إنْ سُحِقَ الفرْدُ!

هيَّا بنا.. نحنُ لمْ يَتبقَّ لَنا

غيرَ ما سوفَ تَسْقِى مَساءَ غدٍ

هِندُ.. أو دَعْدُ!

فاشرَبْ كما شِئتَ..

وامحَضْ وِدادَكَ يا صاحِبِى مَن مَحَضْ!

(ح)

تلك أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ!

كنتُ أعرِفُهمْ بالبَديهَةِ..

مِن كلِّ سَاهٍ.. تَمسْكنَ حتّى تمكَّنَ!

كنتُ- كَما يُذكَرُ الضِّدُّ بالضِّدِّ-

أذْكرُهُمْ بالنُّفوسِ النَّزيهَةِ

فليرْحَمِ اللهُ مَن كان لقَّبهُمْ بذِئابِ الصَّحافَةِ!

مِن كلِّ لاهٍ.. تَنكَّرَ حتى تَصدَّرَ..

أصبحَ ضيفًا بكلِّ الولائِمِ..

هُم يَزرعُــونَ.. ويَحصُــدُ مــا

يَتيَسَّرَ

طُـــــــولَ

المواسمِ..

إنْ شَمَّ فى مَوْسِمٍ دِرْهمًا.. يَنتفِضْ!
رحِمَ اللهُ مَن كانَ لقَّبَ أمثالَهُمْ بكلابِ الثقافةِ..
مِن كلِّ داهٍ.. تملَّقَ حتى تَسلَّقَ
لكنّهُ فى الغداةِ- ومهما تقلَّدَ مِن مَنصبٍ
أو تَرقَّى إلى رُتبةٍ- يَنخفِضْ!

(ط)

تلك أيامُ أقلامِ أهلِ الغَرضْ
وأنا اليومَ حُرٌّ كما لم أكنْ قبلُ قطُّ!
ولكنَّنى لستُ أملِكُ شيئًا
سِوَى أنَّنى أرقُبُ الزَّبدَ المتدافعَ فى لُجَّةٍ
كيفَ يَعلُو.. ويَشتَطُّ!
يَركَبُ ما شاءَ مِن موْجَةٍ!
كيف يَبلُغُ فى حَوْمةٍ قِمَّةً!
يَرتقِى.. ثُم يَنحَطُّ!
كيف يَصيرُ هَباءً.. يَضيعُ سُدًى
فكأنْ لم يكُنْ قطُّ!

مثلَ بَريقِ زَها.. وانْتهَى!
أو كطاقَةِ غزْلٍ غدَتْ- بعدَ إبْرامِها- تَنتَقِضْ!

(ى)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ
هِى أيَّامُ مَن وجَّهُوا بُوصْلةَ الذِّهنِ..
أيامُ مَن مَوَّهُوا القبْحَ بالحُسْنِ!
يا صاحِبى لا تَسلْنِى عنِ الأدَبِ- اليومَ- والفنِّ..
واسْألْ: مَتى سوفَ تُشفَى الصُّدورُ
مِنَ الضِّغْنِ!

لا يا أخِى.. لا تَسلْنى عنِ النَّقدِ
هذا الهُراءِ الذى سَطَرُوهُ
وعن حاضِرِ النَّثْرِ.. كلَّا
ومَن نثَرُوهُ..
ولا عنْ جَديدِ القَريضِ.. وعمَّنْ قرَضْ!

(ك)

تلك أيَّامُهمْ

وأنا اليومَ مُنشغِلٌ برَحيلِى إلى خالِقى

أنا لا عِلمَ عِندى بما يفعلونَ وما يَتركُونَ..

وهل كانَ يُمكِنُنى

وأنا أتسمَّعُ نبْضَ النِّهايةِ فى خافِقِى!

فَأحِسُّ بأنِّى اقْتربتُ: تَرنَّحَ سِرِّى

وصَوَّحَ زهْرِى

وأوشكْتُ يَنْبَتُّ عن سابِقِى

لاحِقِى!

تلكَ أقلامُهُمْ

وأنا اليومَ لا علْمَ عِندى بما يَكتبونَ..

وما يقرأونَ..

ولا بالذى كانَ بالأمْسِ مِن أمرِهِمْ

أو غدًا سيكونُ!

وما لِي بهمْ!

كيفَ تَهتمُّ رُوحٌ علَى حافَّةِ القبرِ..

وَجْلَى.. وعجْلَى

بماضٍ تَولَّى.. ومُستقبَلٍ مُفتَرَضْ!

(ل)

تلك أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغَرضْ

لمْ أعُدْ أُبصِرُ اليومَ إلا الهُلامَ!

إذِ انهارَ صَرْحُ العِباراتِ.. بارَ الكَلامُ!

إذِ انْفرَطَ العِقدُ..

فانتَثرَتْ رَوْعةُ النَّظمِ.. ضاعَ النِّظامُ!

فلستَ تَرَى- إنْ تأمَّلْتَ- إلا هَلاوِسَ بالِغةً

ويُسمُّونَها: لُغةً!

وهى مِن هَذَرِ القولِ مَلأَى

وإنْ أنتَ أمعنْتَ فيها تَراها مِنَ الرُّوحِ فارغةً!

أو أعدْتَ القراءةَ.. مَهْما أعَدْتَ

فهَيْهاتَ تَعرِفُ: أينَ هُو البَدءُ!

أينَ الختِامُ!

وكمْ كنتُ- قبلَ الرَّحيلِ-
أُفتِّشُ عن كلِمةٍ تُدفِئُ القلبَ..
أقرأُها وأنامُ..
فلا استْتدْفَأَ القلبُ قطُّ..
ولا الطَّرْفُ مِنِّى اغْتَمضْ!

(م)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ
وأنا الآنَ أعلَمُ أنَّ امتِحانَ النِّهايةِ حانَ
وأنَّ الرَّحيقَ الذى طالَما فاضَ: غاضَ..
وأنَّ شِهابَ الطُّفولَةِ
يَمرُقُ كالطَّيْفِ.. عبْرَ ضَبابِ الكُهولَةِ..
يُمسِكُ بالعُمرِ مِن طرْفِهِ المُضمَحِلِّ..
فَيُطوَى كطَيِّ السِّجِلِّ!

كأنَّ الزَّمانَ.. وفى غَمضةِ العيْنِ:

دارَ علَى ذاتِهِ

فتداعَتْ مِن الغيْبِ أشْتاتُ آناتِهِ

وتلاقَتْ أوائلُهُ بخَواتِيمِهِ

فإذا هُو: تَأخيرُهُ مثلُ تَقديمِهِ!

وإذا بالسِّنينَ التى انبَسطَتْ لِى

بآلافِ أفْراحِها وبأصْنافِ أتْراحِها:

تَنقبِضْ!

(ن)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ

آهِ.. لوْ عَلِمُوا بعضَ ما أعلَمُ الآنَ!

لو أدْركُوا فُحْشَ عاقِبَةِ العيْشِ بالنَّهشِ!

لو ذَكَروا هوْلَ ما سيكونُ فثابُوا..

وتابُوا عنِ الغِشِّ

واستَهْوَنُوا كلَّ ما كانَ!

لو شاهَدُوا بعُيونِ البَصائرِ: بُؤسَ المَصائرِ!

لو عالَجُوا الصَّدأَ المُتَكلِّسَ فوق جُلودِ الضَّمائرِ!
لوْ أَقْرَضُوا اللهَ..
فاللهُ مِن خلْقِهِ يَقترِضْ!

(س)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ
وأنا الآنَ وحْدِى أُحاورُ صمْتَ النِّهايةِ!
ما عادَ عنْدِى جديدٌ يُقالُ
بغيْرِ جوابٍ سيبقَى السُّؤالُ..
فلا رأْىَ أُبْدِى
لمَن يَطلُبُ الرَّأْىَ.. لا نُصْحَ أُسْدِى!

وبعد قليلٍ أودِّعُ أَهْلِى
وأسْألُ عن أصْدقائِى
وأُلقِى السَّلامَ علَى جيرَتِى
ثُم يَستعْرِضُ القلبُ لِلمرَّةِ المُرتَجاةِ الأخيرَةِ
بعضَ الذى كانَ مِن سِيرَتِى:

كم كَرِهتُ.. وأَحببْتُ..
بلْ كمْ أَصبْتُ.. وأَخطأْتُ!
بلْ كمْ- برَغْمِ اسْتواءِ الطَّريق- تَعثَّرْتُ!
زلَّتْ- مع الحرْصِ- بِى قَدَمِى!

لَيْتَنى كنتُ كذَّبْتُ بعْضَ الذى كنتُ صدَّقتُهُ
فتبيَّنْتُ مَن أصْدِقائِى.. ومَن خدَمِى!
ليْتَنى كنتُ أبْديْتُ:
بعضَ الذى كنتُ أخفيْتُهُ!
ليتنى قلتُ ما لمْ أقُلْهُ..
ويا ليتَنِى لمْ أقُلْ بعضَ ما قُلتُهُ!

لَيْتنِى.. ليْتنِى.. ليْتَ
لكنَّنى اليومَ ما عادَ يَنفعُنِى نَدَمِى!
فَلْأقَعْ مِن شُموعِ وُجودِى
علَى ما عسَاىَ أُضِىءُ به عَدَمِى!

ولْأدَعْ جَسدِى يَتطهَّرُ شيئًا قبيْلَ الرَّحيلِ
بآخِرِ نوْبَةِ وخْزٍ تُضاعِفُ مِن ألَمِى!
ولْأضَعْ قلَمِى
كمْ علَى مَضَضٍ قد كتبْتُ..
على مضَضٍ قد قرأْتُ.. وأىُّ مضضْ!

(ع)
تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ المرَضْ!

(ف)
تلكَ أقلامُهمْ.. تلكَ أيامُهمْ
وأنا الآنَ لا شَأْنَ لِى بأحابِيلِ أغْراضِهِمْ
وعَقابِيلِ أمْراضِهِمْ
فأنا محضُ رُوحٍ قُبِضْ!

(ص)
تلكَ أيَّامُ أقلامِهِمْ.. تلكَ أقلامُ أيَّامِهِمْ!

وأنا اليومَ لا شأنَ لى

أىُّ شأنٍ لِمثلِى بهمْ!

لستُ إلا رُفاتَ امرِئٍ ماتَ..

يَرقُدُ.. والقلَمُ الحُرُّ فى يدِهِ

والتُّرابُ السَّرِيرُ

إلى أنْ يشاءَ القديرُ

فإن قالَ- سبحانَهُ- انهَضْ

نَهَضْ!

(ق)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ المَرَضْ!

وأنا الآنَ أصعَدُ مُسْتشفِيًا

وأَغُذُّ الخُطَى

بلْ أُرفرِفُ مُسْتهدِيًا بجَناحَىَّ مثلَ القَطَا!

كنتُ ودَّعْتُ منذُ قليلٍ

صِحابِى وأهْلِى

وكانَ الرِّجالُ أمامِى وحوْلِى:
يُكَفكِفُ- عنْ بعضِهِمْ- بعضُهُمْ أدْمُعًا

وكأنِّى سمِعْتُ النِّساءَ
وهنَّ يُلوِّحْنَ لِى بمَناديلِهِنّ.. يَقُلنَ معًا:
لمْ تكُنْ قبْلُ قَطُّ كمِثْلِكَ هذا المَساءَ!
كأنِّى تَبسَّمتُ مُسْتحْيِيًا.. ثُم نمْتُ..
فلم أدْرِ ما كانَ سائِرَ يومِى!
سِوَى أنَّنى قد غَفوْتُ
فما كِدْتُ أنهَضُ مِن عذْبِ نَوْمِى
وأفتَحُ عينَىَّ..
حتّى بَدَا.. فأضاءَ المَدَى
وجْهُ أُمِّى!

كأنِّى سمِعْتُ- علَى البُعدِ- صوتَ أبِى
لكأنِّى بهِ كانَ يَهتِفُ مِن جنَّةِ الخُلْدِ فى طَلَبِى!
فأَجبْتُ النِّداءَ..

نَسِيتُ الرِّجالَ.. نَسِيتُ النِّساءَ!
نسِيتُ الحياةَ بأمْراضِها
وبِسائِرِ أغْراضِها
بتَبارِيحِ آلامِها وتَفارِيحِ آمالِها!

وتَبرَّأتُ مِن كلِّ أحْوالِها!
كلِّ ما كانَ فى الأرْضِ
مِن جوْهَرٍ أو عَرَضْ!

(ر)

بيْنَ نُوريْنِ:
نُورٍ يَفيضُ.. ونُورٍ يَمِضْ
أتَقلَّبُ بينَ الحَقيقَةِ والحُلْمِ.. هأتَذَا!
وأُحاوِلُ أنْ أُصلِحَ الآنَ بيْنَهما!
سوف أذكُرُ ما أَعْطَيَانِى.. وما أخَذَا
وأُواصِلُ.. مُستكمِلًا رِحلَتِى
سأسافِرُ وحْدِى علَى هَدْىِ نُورِهما

يا لَنُورٍ يُتمِّمُ نُورًا!

ويا لَسَعادةِ مَن سافَروا.. فاستَنارُوا!

ويا لَعِنادِ العِبادِ.. إذا نَظَروا فى المَعادِ.. فحَارُوا!

وهل يُدرِكُ العَقلُ:

كيفيَّةَ البعْثِ بعدَ الرُّقادِ؟

ولكنْ: على ضَفَّتَىْ فِكرَةٍ يَتردَّدُ!

ما انْفكَّ فينا فريقٌ يُؤيِّدُ.. ضدَّ فريقٍ يُفنِّدُ

شكَّكَ هذا.. وذاك يُؤكِّدُ

أثْبتَ زيْدٌ.. وعَمْرٌو دَحَضْ!

(ش)

حيثُ لا مَرَضٌ يَعتَرِى.. لا حَرَضْ!

أَسبَحُ الآنَ خَلْفَ حُدودِ الزَّمانِ..

قُيودِ المَكانِ..

أشاهدُ ما كنتُ لمْ أتخيَّلْهُ!

أَترُكُ رُوحِى لكىْ تَتنَزَّهَ

حيثُ تُريدُ

وتَنشَقَ رِيحَ الجِنانِ..

وكنتُ كأنِّى رأيْتُ مَلاكًا

سَألتُ.. فقِيلَ:

يُطِلُّ علَى النَّاسِ فى كلِّ مَطلَعِ شمْسٍ

يقولُ: أيا مَعْشرَ الإنْسِ..

قد غَفرَ اللهُ مِن ذنبِكُمْ

كلَّ ما كانَ بالأمْسِ!

فلْتنعَمُوا بالصَّباحِ الجَديدِ..

ولا تَقنَعُوا مِن جَنَى الحُبِّ فيهِ

سِوَى بالمَزيدِ..

أحِبُّوا.. وصَلُّوا

فإن الإلَهَ يُحبُّ صَلاةَ العِبادِ

وليسَ يُحبُّ صلاةَ العَبيدِ!

أنا الآنَ أرتَعُ فى جَنَّةٍ
مُتناهِيَةِ الطُّولِ والعَرْضِ..
صِرتُ كأنِّى رأيْتُ مَلاكًا
سألتُ.. فقِيلَ:
يُطِلُّ على ساكِنِى الأرضِ
فى كلِّ مَغرِبِ شمْسٍ.. يَقولُ:
ألَا يا ابْنَ آدَمَ
نَمْ وادِعَ النفْسِ.. نَمْ آمِنًا!

وإذا امتَلأ القلْبُ باليأْسِ.. بالأمَلِ اغسِلْهُ..
ولْتَدْعُ ربَّكَ..
زَوَّلَ- سُبحانَهُ- عنكَ كَرْبَكَ..
أمْ لمْ يُزوِّلْهُ!
حَبْلُ الرَّجاءِ..
قد امتدَّ مِن صوْبِ بابِ السَّماءِ
علَى رِسْلِهِ
يا ابنَ آدَمَ لا تَقطَعِ الحبْلَ.. بلْ صِلْهُ

نَمْ آمِنًا

وكمَا قد علِمْتَ بأنَّ لِوجْهِكَ ماءً

فلمْ تَبتذِلْهُ

كذَا لِلضَّميرِ دَمٌ.. لا تُسِلْهُ

وفى مِثلِ مَنزلَةِ اللهِ.. أنْزِلْهُ!

دَعْ ما نَهَى عنهُ..

أمّا الذى سَنَّ فافعلْهُ

واصْدَعْ- طوَاعِيَةً- بالذى قد فَرَضْ!

(ت)

ثَمَّ لا مَنْ وَشَى.. لا مَنِ اغْتابَ

لا مَن بَغَضْ!

وأنا الآنَ فى ثُلَّةِ الخالدِينَ

مِنَ النَّفَرِ الصَّالحينَ

فكلٌّ يَنالُ الذى لمْ يَنلْهُ..

ولكنَّنِى كنتُ وحْدِى أُفكِّرُ فى صُورةِ الخُلْدِ

فى زَمنِ اللذَّةِ المُستَدِيمِ..

وأشهدُ ما كنتُ لم أتَعجَّلْهُ:

أبكارَ دارِ النَّعيمِ..
فمِن كلِّ حوْراءَ عيْناءَ.. لِى أنْ أشاءَ
فتأتِى التى شئتُ طَوعًا إلىَّ..
وكلُّ الذى أتَمنَّى يكونُ
فما هُو إلا التَّمنِّى لِيُصبِحَ بينَ يدَىَّ..
فوَيْلِى إذا صِرتُ:
لمْ يَبقَ فى واقِعِى ما يَعيشُ بهِ أمَلِى!

سوف أفعلُ- لا بُدَّ-
ما يَفعلُ المؤمِنونَ..
ولا شىْءَ أخْشَى سِوَى مَلَلِى!
عَمَلِى كانَ لِى مُتعَتِى فى حياتِى
فكيفَ إذا أصبحَتْ مُتعَتِى عمَلِى!

أَتبوَّأُ خيْرَ مُقامٍ
وفوقَ الأرائكِ أُسْقَى ألذَّ شَرابٍ
وأَحْظَى بأشْهَى طعامٍ
ونَهرٌ مِنَ الخمْرِ يَجرِى.. ونهرٌ مِنَ العسَلِ!
اللهُ ربِّى.. سيبْقَى بِقُرْبِى
لِأعتادَهُ- حينَ يَعتادُنِى- كسَلِى!

مَن سِواهُ سَيسْلُكُنى
فى عِدادِ العِبادِ المُطِيعِينَ..
ممَّنْ إذا ما قَضَى ربُّهم يُهْطِعونَ!
لِأقبلَ ما قبِلَ الآخَرونَ
وأرفُضَ ما كانَ غيْرِى رفَضْ!

(ث)
هذه الدَّارُ- مِن أُختِها تلكَ- خيْرُ العِوَضْ
وأنا الآنَ أرفُلُ فى الحُلَلِ السُّندُسيَّةِ..
والجنَّةُ اليومَ مَمْلكتِى

ليسَ يَنقُصُنِى مِن مَباهِجِها
غيرَ ما قد تَركْتُ لدَيْكمْ على رَفِّ مَكْتبتِى!

عَلَّهُ لمْ يزَلْ يَحمِلُ الآنَ: تلكَ الكُنوزَ البديعَةَ!
مَن لِى بأنْ أستردَّ الوَدِيعَةَ!
أو أنْ أَعُودَ إليكمْ
إذا أسْدلَ اللهُ سِتْرَ الظَّلامِ
فأُلقِى سَلامَ الغَريبِ على حُجْرتِى!
أتفقَّدُ أركانَها
بعدَ أنْ أَطمئِنَّ على أُسرَتِى
وأُراجِعُ فيها مُسوَّدةً لمْ تَتِمَّ..
وما كانَ يَنقُصُها غيرَ سطْرِ الخِتامِ!
وسوفَ أقولُ: انتظِرْ يا "رجاءُ" هنا
دُونَكَ السَّطْرَ.. أَكمِلْهُ!

أو ربَّما أتَصفَّحُ:
ما كانَ أعْجَلَنِى الموْتُ عنهُ..

وقد أتأمَّلُ ما كنتُ لمْ أتأمَّلْهُ!
أَختارُ مِن دُرَرِ الكَنْزِ فى عَوْدتِى
ما عسَاىَ أُنِيرُ بهِ جنَّتِى!

أيُّها القلْبُ: ذلكَ (زادُ المَعادِ)
إنِ اسْطَعْتَ فاحملِهْ:
شِعرُ أبِى الطّيِّبِ.. الحِكمَةُ المَشْرِقيَّةُ..
فنُّ الهَوَى.. كليوباترا أَميرِ القوافِى
التى اخْتارتِ السُّمَّ..
أمَّا الهَوانُ فلمْ تَحتمِلْهُ!

عُيونُ التَّواريخِ..
فَتْوَى الفَقيهِ الذى قالَ:
يا أيُّها المُسلِمُ اسْتَفْتِ عقلَكَ..
واتركْهُ يَعمَلْ على طبْعِهِ
واتَّقِ اللهَ فى شَرْعِهِ!
كلُّ ما لمْ يُحرِّمْهُ.. حَلَّلْهُ!

أيَّامُ طهَ العَميدِ
مَجانِينُ دستويفسكى وأبْطالُهُ البُلْهُ!

حلاَّجُ عبدِ الصَّبورِ.. حَرافيشُ محفوظَ..
أولادُ حارتِنا المسْتَخفَّةُ بالشَّكِّ..
فى تُهمَةِ الشِّرْكِ..
مرثيَّةُ العمْرِ أو لاعبِ السِّيركِ..
ذاكَ الذى: إنْ لَها.. جَدَّ
أو جَدَّ.. لمْ يَلْهُ!

فَصْلُ المَقالِ
خَماسِينُ مُختارَ
نَجْوَى الفَقيرِ إلى ربِّهِ:
يا إلَهِى.. تَقدَّسْتَ مِن خالِقِ
أنتَ أرحَمُ مِن أنْ تُحرِّقَ بالنَّارِ عبْدَكَ
مَهما يكُنْ دِينُهُ فاغتفِرْ ذنبَهُ

وإلى الجَنَّةِ الآنَ يا ربُّ أرسِلْهُ!

قَصْفُ النُّواسِيِّ فى حانِهِ
لَوْحةُ الموناليزا.. باليهُ البُحيْرَةِ
شِعْرُ المُقاوَمةِ المُسْتحِمُّ بعِطْرِ دمِ الشُّهداءِ
حِكايَةُ قَطْرِ النَّدَى.. مَوْسِمُ الهجْرةِ..
المرأةُ الشِّكْسبيريَّةُ..
المُسْتضِيئةُ فى كلِّ ما مثَّلْتهُ..
بما لمْ تُمَثِّلْهُ!

نَهْجُ البلاغَةِ..
شَرْحُ الأمينِ الذى قالَ:
يا مَن ستُحْيِى قَديمَكَ.. بالدَّرْسِ فاقتُلْهُ!
سِقْطُ المَعَرِّىِّ.. سِمْطُ اللُّزومِ
نُصوصُ الحَكيمِ
اسطُواناتُ دَرويشَ.. أندلُسِيَّاتُ فيروزَ
ما أطربَتْنِى بهِ أمُّ كُلثومَ

فِردَوْسُ دانْتِى ومَطْهَرُهُ الفذُّ..

أمَّا الجَحيمُ فلمْ أتَقبَّلْهُ!

ما لِى أنا بالجَحيمِ!

مَكانِى هنا: بينَ أهلِ النَّعيمِ المُقيمِ

أَنالُ الذى لم أنَلْهُ!

أُمتِّعُ نفْسِى كمَا تَشتَهِى

حيثُ أَطعَمُ خُبزَ الخُلودِ..

فأعرِفُ مَعنَى الزَّمانِ الذى:

سوفَ لا يَنتَهِى

ثُم أكشِفُ مِن سرِّهِ ما غَمُضْ!

(خ)

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغَرضْ

وأنا اليومَ قد وَجَبتْ أوْبَتِى

فاذْكُروهمْ بألقابِهِمْ

ودَعُونى أعُودُ إلى جنَّتِى

واحفَظُوا الآنَ عنِّى تَسلسُلَ أنسابِهِمْ

فأخًا عن أخٍ.. وأبًا عن أبٍ
واعْرِفوهمْ بما قد أَبنْتُ لكمْ أمسِ
بعْضَ الإبانَةِ
أو فاسْتدِلُّوا عليهمْ بما لمْ أُبِنْ!
فبِموْهبَةِ الحَدْسِ.. أو باللَّقَانَةِ
ولَتْتركُونِى

دَعُونِى أودِّعُ بِنْتِى "لمِيسَ"
لألقَى شقيقِى "وحيدَ"..
فأسألَهُ كيف قد وجَدَ الآن حُلمَ الخُلودِ!
ويَسألُنِى عن رِفاقٍ لَهُ.. منذُ فارقَهُمْ:
ما الذى صنَعُوهُ؟
وعن شارعٍ كانَ فى قَلبِ قَرْيتِنا يَلتقُونَ بهِ
فأقولُ: أُولُو الأمرِ والنهْيِ باعُوهُ!
عن شَجرِ السَّرْوِ والكزْورِينِ على جانبَيْه..
أقولُ لهُ: اقْتلعوهُ!

وعن بيْتِ أجْدادِنا.. والذى أَوْدَعُوهُ
أجيبُ: أضاعُوهُ!

عن مَصنَعٍ كانَ يَعمَلُ جارٌ لنَا فيهِ..
أو عن مَكانٍ حَميمٍ على شاطِئِ النِّيلِ..
كنَّا نُوافِيهِ
وهْو يرِقُّ ويَحْنُو على قاصِدِيهِ..

مِنَ الحالِمِينَ.. أو المُغرَمينَ!

عن الياسمِينِ الذى كان يَعبَقُ عندَ هُبوبِ النَّسيمِ

وسوفَ أقولُ: انْقرَضْ!
والنَّسيمُ انقَرَضْ!
والمكانُ الحَميمُ انْقرَضْ!

ثُم يَسألُ عنْ عامَّةِ النَّاسِ فى حَيِّنا

فأقولُ: لقد كانَ آخِرُ عهْدِى بهِمْ

أنَّنى حِينَ غادرتُهُمْ أمْسِ..

ما كنتُ أَذكُرُ غيرَ صَدِيقِى:

الصَّدُوق.. العَقُوق

الرَّفِيق.. الصَّفِيق

صَدِيقِى اللَّطِيفِ العَنِيفِ.. الأَلِيفِ المُخِيفِ

صَدِيقِى العدُوِّ.. عَدُوِّى الصَّدِيق

صَدِيقِى العَضُوضِ البَغِيضِ:

المرَضْ!

خَتْمُ الزَّاد

تلكَ أيَّامُهمْ

تلكَ أعوامُهمْ

تلك أقلامُهمْ

تلك أزْلامُهمْ

تلك أعلامُهمْ

تلك أقزامُهمْ

تلك أحلامُهمْ

تلك أوهامُهمْ

تلك صُورتُهُمْ تسْتهِلُّ بكاملِ سَحْنائِها

وبأحْجامِ أجسامِهمْ!

تتبدَّى لكمْ بمَساحيق أضوائِها

تَتحدَّى بنظرتِها الجَانبيَّةِ إنسانَ أعيُنِكُمْ

وتُحدِّق فى الصبحِ أو فى المساءِ

تُفرِّقُ عن وجهِ أشجعِكُمْ
وجْهَ أجْبنِكُمْ!

سوفَ أتركُها
لِتَظلَّ هنا فى العَراءِ.. وأنتمْ تَظلُّونَ!
أمَّا أنا.. فكمَا تَعلَمونَ:
قد اكتملَتْ دَوْرتِى!

هذه صُورتِى
تتوارَى عن المَشْهَدِ الآنَ شيئًا فشيئًا
وتَمْضِى بَعيدًا.. بعِيدًا
إلى أنْ تَغيبَ تمَامًا!

ولكنَّها قد تَعودُ لكمْ ذاتَ حُلمٍ
تَعودُ- إذا هِى عادَتْ-
كأُمنيَّةٍ خطَرتْ فى المَنامِ بِبالٍ

تَعودُ كطيْفِ خيالٍ على غيرِ وعْدٍ عرَضْ

لِيُعيدَ على سَمعِكُمْ:

تلكَ أيَّامُ أقلامِ أهلِ الغرَضْ

تلكَ أقلامُ أيَّامِ أهلِ الغرضْ!

فبراير/ أبريل ٢٠٠٨.

إحـــالات

(زاد المعاد): عنوان كتاب معروف لابن القـــيِّم. (أوَدُّ مـــن الدهر ما لا يود): عن المتنبى، بتصـــرف. (الضـــد يبعثـــه الضد): عن المتنبى بتصرف أيضا، فى قولـــه: (وبضـــدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ)؛ ومن قبله قول "المِنبَجـــى" فـــى قصـــيدته اليتيمة: (والضدُّ يُظهرُ حُسنَهَ الضدُّ). (الفتـــاة التـــى كنـــتُ كلَّمت عنها المساء): من عنوان قصيدة لأحمد عبد المعطى حجازى فى ديوانه الأول: (مدينة بلا قلب).

فِلَسطِينُ التِى ستَجِىء

فى وداع محمود درويش (١٩٤١- ٢٠٠٨)

لا.. هذه ليست زبرجدةً

ولكن سيرة صغرى

لسقوطِ هذا القلبِ فى مستنقعٍ

وعبورِهِ البحرا

من غير أن يبتلَّ.. أو يعتلَّ.. أو يَعرَى!

*** ***

نبكِى فلسطينَ الحقيبةَ..

أم فلسطين السكَنْ؟

لا.. بل فلسطين الوطنْ!

*** ***

وتَجمَّعَ المُتَجمِّعونْ

كلُّ الدَّلائلْ

كانتْ تُشيرُ إلى خِلافٍ ما سيَنشَبُ

بينَ مَنْدُوبِى القَبائلْ

وتَكلَّمَ المُتكلِّمونْ:

حولَ اصْطِلاحِ (الأُمَّةِ العَربيَّةِ) احتدَمَ النِّقاشُ:

فقالَ زيْدٌ: ما القُمَاشُ؟

أجابَهُ عَمْرٌو:

خُيوطٌ مِن نَسيجٍ.. لُحْمَةٌ وسَدًى

فقالَ: صدَقْتَ..

لكنْ كيفَ ضاعَ قُماشُ رايتِنا سُدًى!

ومَنِ الذى نَقَضَ النَّسيجَ؟

وسلَّطَ القوْمَ الدُّعاةَ مع الرُّعاةِ.. على العُراةِ

مِنَ المُحيطِ إلى الخَليجِ!

*** ***

نَبكِى فلسطينَ الزرافةَ..

أمْ فلسطينَ الأسَدْ؟

لا.. بل فلسطينُ الجسَدْ

*** ***

كنَّا اتَّفقْنا حولَ تَعريفِ الدَّمِ العربىِّ..

قُــلنا: إنَّهُ شىءٌ نَظيفٌ

طازَجٌ.. لَــزِجٌ.. كَثــيفٌ

أحمَرٌ- كالورْدِ- سائلْ!

ثُم اختلَفْنا حولَ مَفهومِ الجَمالِ الأُنثَوِىِّ..

وفجأةً طلَعَتْ علينا كالهِلالِ..

فلمْ تدَعْ قولًا لِقائلْ!

فصَحوْتُ مِن صمْتِى..

هتفْتُ بها: اتبَعِينى يا ابنَةَ المُتفَيْهِقِينَ..

الآنَ يَنقُصُنا وِصالٌ أوَّلانِىٌّ

وِصَالٌ غيْرُ شَرْعِىٍّ لِنُصبِحَ فى مَبادِئِنا
ويَنقُصُنا نَبِيذٌ عَسْقلانِىٌّ لِتَنضبِطَ المَسائلْ!

*** ***

نبكى فلسطين الحقيقةَ..
أم فلسطين الخيالْ؟
لا.. بل فلسطين السؤالْ!

*** ***

وتَكلَّمَ المُتكلِّمونْ
قالَ الفِلَسطينِىُّ: لمْ أَفهَمْ سِوَى لُغةٍ يُكلِّمُنِى بها جُرحِى
فكُفُّوا الآنَ عنْ نُصْحِى!
واستْأنَفَ المِصرِىُّ: كلَّا
ليسَ يُشبِعُنى رغيفٌ ليسَ مِن قَمْحِى!
والواعِظُ السُّنِّىُّ قالَ: ستَطلُبونَ الصُّلْحَ
لكنْ لنْ يصِحَّ

سِوَى الذى قد شاءَ ربُّكَ أنْ يَصِحَّ..

غدًا تَتكلَّمُ الأحْجارُ بالعَربيَّةِ الفُصحَى

لِتُرشِدَ عنْ يَهُودِىٍّ تَخبَّأَ خَلْفَ جَنْدلِها!

فتَنحنَحَ البَدوِىُّ..

بَسْمَلَ ثُم حَوْقَلَ ثُم قالَ:

إذا استَطاعَ الباءَةَ المُتأَهِّلُونَ..

فزَوِّجُوا سِفْرَ القُضاةِ بسُورةِ الفتْحِ!

قالَ الشُّوَيعِرُ:

هؤلاءِ الرَّهطُ ليسَ يَلِيقُ ليُلْهُمُ بِصُــبْحِى!

*** ***

نبكى فلسطين القصيدةَ؟

أم فلسطين السرابْ؟

لا.. بل فلسطين الترابْ!

*** ***

وهنا ابتَسمْتُ لهمْ جَميعًا

ثُم إنِّى فى- هُدوءٍ قاتلٍ- ودَّعْتُهمْ

قلتُ: السَّلامُ عليْكُمُ..

الآنَ اسمَحُوا لِى بانْصِرافِى

قبلَ أنْ تَتآكلَ الأرضُ التى تَقِفونَ فوقَ تُرابِها

ويَضِيقُ باطِنُها عنِ المَوْتَى

وتَزدادَ الجَريمةُ عن مُعَدِّلِها!

*** *** ***

لا.. هذه ليستَْ زَبرجَدَةً

لكنَّها مَنحَتْ دَمِى حقَّ اللُّجوءِ..

فمِنْ فِلسطينَ التى ذهبَتْ

مَضيْتُ إلى فِلسطينَ التى ستَجِىءُ!

فاخلُبْ لُبَّ غيْرِى أيُّها الشِّعرُ الحَداثِىُّ الأنِيقُ!

وخَلِّ ماءَكَ راكِدًا فى ما وراءِ النَّصِّ

حتّى لا يُراقَ.. إذا أُرِيقْ!

ودَعِ الحِجارةَ لِى

لِأرمِىَ فى غدٍ- مِن عُمق مَقبرَتِى-

مُجنزَرَةَ العَدوِّ بها

وخُذِ هذا العَقيقْ!

الصيغة النهائية: أغسطس ٢٠٠٨.

((القصيدة.. وبطل القصيدة))

قراءة نقدية لقصيدة: "زاد المعاد"

يعزينا بعض العزاء عن فقدنا لـــــ **رجاء النقاش**، شعورنا القوى بأننا فقدناه؛ أى بأننا فى حاجة إليه، وبأنه كان يمثل فى حياتنا الأدبية قيمة حقيقية؛ ويقدم لنا ما لا يقدمه سواه. هذا الشعور بالفقد، نلمسه فيما كتب عنه فى مصر؛ وفى الأقطار العربية الأخرى؛ التى عرفت **رجاء النقاش** كما عرفها، وأحبته كما أحبها.

ولقد تابعنا ما كُتب عن **رجاء** وقرأناه، فشعرنا بشىء من العزاء، وبشىء من الطمأنينة؛ لأننا رأينا أن حياتنا الأدبية ما زال فيها خير يرتجى؛ وأنها ليست بالسوء الذى نتصوره، ونشكو منه؛ حين نراها مسيرة بقانون الترغيب والترهيب! وربما خرجت على كل قانون، فأصبحت بوابة بغير بواب؛ يعبث فيها كل مدَّعٍ صعلوك فاسد؛ فمن لا يملك يعطى من لا يستحق!

أقول إن ما قرأناه عن **رجاء النقاش** يدلنا على أن الضمير الأدبى لم يزل حيا، ولم يزل قادرا على أن يستيقظ من نومه الطويل؛ ليكشف الأدعياء، ويحاصرهم ويطاردهم؛ ويحكم لصاحب الحق، حتى بعد أن يرحل؛ مدركا أننا حين نعرف لـــــ **رجاء** وأمثال **رجاء** قدرهم،

نعرف لأنفسنا قدرها؛ وأننا حين نعطيهم حقهم، نحتفظ بنصيبنا فيه؛ فالكاتب حين يكتب، لا ينتفع وحده بما كتب؛ بل ننتفع به معه، وننتفع به أكثر منه؛ لأنه فى النهاية يرحل، لتتوارث عمله الأجيال.

عزَّانا إذن فى **رجاء**، ما قرأناه عنه وطمأننا. وأستطيع أن أقول: إنه- أو إن بعضه- أمتعنا؛ فنحن فيما كتبناه عن **رجاء**، نواجه الموت بالحياة، والفقدان بالوجدان؛ ونبدع من ذواتنا الفانية، أعمالا باقية؛ ونبدد الصمت بالغناء، الذى قد يختلط بالبكاء. وبهذه العواطف، وهذه الدوافع؛ كتب **حسن طلب** قصيدته فى وداع **رجاء النقاش**.

*** *** ***

قصيدة **حسن طلب** فى وداع **رجاء النقاش** ليست مجرد مرثية، وليست مجرد اعتراف بفضل الكاتب الراحل، أو حديث عن مناقبه ومآثره؛ ولكنها كما وصفها الشاعر بنفسه: سيرة شعرية لـــ **رجاء النقاش**، مهداة إلى روحه. والسيرة حياة متصلة، ودورة كاملة تبدأ وتنتهى، وتنمو وتتطور، وتتقاطع وتتواصل؛ فتملأ زمانها ومكانها بقدر ما يخطر لها ويرسم حركتها؛ من الأسئلة والإجابات، ومن الآمال والأحلام، والمطالب والرغائب. هكذا أصبحت سيرة **رجاء النقاش**، فى التجربة الحية التى عاشها، وفى القصيدة التى كتبها عنه

حسن طلب؛ سيرة جيله كله، وسيرة المثقفين؛ خاصة من أبناء هذا الجيل.

اقتبس الشاعر عنوان قصيدته من عنوان كتاب **ابن قيم الجوزيه** المشهور: (زاد المعاد فى هدى خير العباد)؛ وهو كتاب استقى فيه **ابن القيم** مادته من سيرة النبى، ومن المعارف الدينية المختلفة التى يحتاج إليها المسلم فى رحلته من الدنيا إلى الآخرة، ولهذا سمى كتابه (زاد المعاد)؛ وهو اسم يذكرنا باسم كتاب آخر له، هو: (حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح)؛ وفيه يتحدث عما أُعِد لأهل الجنة من متع حسية؛ يصفها ابن القيم وصف رجل من أهل العصور الوسطى، معذب بين ضميره المتطهر، وخيالاته الشبقة!

كان **ابن القيم**، مثله مثل أستاذه **ابن تيمية**، حنبليا متشددا، مروَّعا بأحداث عصره- القرن الرابع عشر الميلادى- الذى تصارع فيه المسلمون مع فلول الصليبيين؛ واجتاح التتار بلاد المشرق؛ وتساقطت مدن الأندلس وحصونه فى أيدى الملوك الكاثوليك؛ فهو عصر مضطرب مخيف، بدا لأهله كأنه عقاب إلهى لن يتخلصوا منه إلا بالموت! الذى يجب أن يستعدوا له، ويتزودوا بما يحتاجون إليه فى رحلة مَعادهم إلى العالم الآخر.

لكن العالم الآخر، يبدأ من هذا العالم الأول؛ ومن هنا كانت فاتحة الزاد فى سيرة **رجاء** المروية بلسان بطلها، هى أيامنا الراهنة: أيام أقلام أهل الغرض؛ التى يقف الراحل الآن على حدودها منظرا الإذن، ليخرج من عناء هذا العالم، ويمسح عن روحه وجسده ما ناله فيه من شقاء.

لقد أنهكه المرض، لكنه يشعر أنه لم يكن صحيحا معافًى كما هو الآن؛ بل هو ينظر إلى مرضه الذى طالت صحبته له، نظرة الصديق لصديقه!

العالم الذى نعيش فيه، أو الذى يعيش فيه بالأحرى أهل الغرض، وهم الأنانيون الكذابون المتسلقون ذوو الضمائر الميتة؛ هو فى هذه الرحلة: الجحيم، الذى ينتقل منه بطلها إلى الفردوس، عابرا هذه المرحلة الفاصلة؛ التى نسميها نحن (الأعراف) ويسميها الأوربيون (المطهر Le Purgatoire)؛ فمن الطبيعى أن تذكرنا قصيدة **حسن طلب**، بكل القصائد والقصص التى تدور حول الصعود إلى العالم العلوى، أو الهبوط للعالم السفلى؛ ومنها: (كتاب الموتى) الفرعونى و(ملحمة جلجامش) البابلية و(أسطورة أورفيوس) اليونانية، و(رسالة الغفران) **للمعرى**، و(الكوميديا الإلهية) **لدانتى**، و(الفردوس المفقود)

لملتون، و(عبقر) **لشفيق معلوف**، و(شاطئ الأعراف) **لمحمد عبد المعطى الهمشرى**؛ فضلا عما كتبه ونظمه المتصوفة المسلمون؛ فى سعيهم إلى الاتحاد بالله والفناء فيه.

قصيدة **حسن طلب** عن **رجاء النقاش**: (زاد المعاد)، عمل جديد يضاف إلى هذه الأعمال. ونحن نرى فيها **رجاء** يودع زوجته وولديه، ليصعد إلى أبيه وأمه؛ وقد تخلص من شرور زمنه، التى تمثلت أكثر ما تمثلت، فى هؤلاء الأدعياء المرتزقة، الذين يمتهنون الثقافة ويسخرونها فى تحقيق أغراضهم؛ حين يُجهض حلم البلاد.

والثقافة هى ملح المجتمع؛ فإذا فسد الملح، فبماذا يُملَّح؟! لهذا يقف **حسن طلب** وقفات طويلة أمام الثقافة، يتحدث عما أصابها على أيدى هؤلاء المرتزقة الأدعياء؛ يتحدث عن القبح الذى يُموَّه بالحُسن، وعن الأدب الذى أصبح مريضا بالحقد والضغن، وعن النقد الذى تحول إلى تجارة، وعن النظم الذى أصبح [***هلاوسَ بالغةً؛ ويسمونها لغة***!]، تمعن فيها النظر، فلا تعرف من أين تبدأ، ولا أين تنتهى!

والمتحدث فى القصيدة، سواء أكان **رجاء النقاش** أو **حسن طلب**، أو الجيل كله؛ لا يعفى نفسه من المسؤولية، ولا يتردد فى الاعتراف

بما وقع فيه من أخطاء؛ يتمنى لو أن الزمن عاد به إلى الوراء! إذن لتجنب الوقوع فيها.

لقد خُدع فى حياته مرتين: فى الفتاة التى أحبها، معتقدا أنها تحبه؛ وفى الحاكم المستبد، الذى ظن أنه يستبد ليعدل؛ فاكتشف أن الاستبداد لا يمكن أن يكون سبيلا إلى العدل؛ الذى لا يطلبه إلا الأحرار المتساوون. ولقد حكمنا الطغاة المستبدون، فلم نجْنِ من حكمهم إلا الهزيمة، والانحطاط، والمجاعة:

لَيْتَنى كنتُ كذَّبْتُ بعْضَ الذى كنتُ صدَّقتُهُ

فتبيَّنْتُ مَن أصْدِقائِى.. ومَن خَدَمِى!

ليْتَنى كنتُ أبْديْتُ:

بعضَ الذى كنتُ أخفيْتُهُ!

ليتنى قلتُ ما لمْ أقُلْهُ..

ويا ليتَنِى لمْ أقُلْ بعضَ ما قُلتُهُ!

لَيْتنِى.. ليْتنِى.. ليْتَ

لكنَّنى اليومَ ما عادَ يَنفعُنِى نَدَمِى!

فَلْأَقَعْ مِن شُموعِ وُجودِى

علَى ما عسَاىَ أُضِيءُ به عَدَمِى!

ولْأَدَعْ جَسدِى يَتطهَّرُ شيئًا قبيْلَ الرَّحيلِ

بآخِرِ نوْبَةِ وخْزٍ تُضاعِفُ مِن أَلَمِى!

فإذا كان **رجاء**، أو بالأحرى بطل القصيدة؛ قد بلغ فى رحلته هذه النقطة الفاصلة، التى راجع فيها نفسه، واعترف بأخطائه؛ فقد آن له أن ينصرف بعدها، عن العالم الذى خرج منه، إلى العالم الآخر الذى يغذ إليه الخُطى؛ ويرفرف على أسواره وأبوابه، مستهديا بجناحيه مثل القطا. أقول إن القصيدة تخرج هنا من الطبيعة، إلى ما بعد الطبيعة؛ من التجربة التى تحققت فى عالم الحس والشهادة، إلى التجربة التى ستحقق فى الغيب، أو التى لا يدرى كيف ستتحقق؛ فهو يتقلب بين الحقيقة والحلم، يسائل نفسه، ولا يطمئن إلى جواب واحد. يتذكر ما قرأه عن هذا العالم، ويتمثل ما حفظه من صور النعيم المقيم، الذى يمنِّى نفسه به؛ ثم يستدرك، فيخشى أن يصيبه الملل، وهو غارق فيه:

ولا شىْءَ أَخْشَى سِوَى مَلَلِى!

عَمَلِى كانَ لِى مُتعَتِى فى حياتِى

فكيفَ إذا أصبحَتْ مُتعَتِى عمَلى!

وها هو يحن للعودة إلى منزله فى الدنيا، وإلى مكتبته؛ حتى يحمل منها إلى حيث يقيم فى العالم الآخر: زاد المعاد، من شعر الشعراء، وحكمة الحكماء، وفلسفة الفلاسفة، وفن الفنانين القدماء والمحدثين. وهذا هو الفرق بين (زاد) **ابن القيم** و(زاد) **رجاء النقاش**؛ زاد **رجاء** من أدب الدنيا، وزاد **ابن القيم** من أدب الدين. لا ينكر **رجاء** إذن كل ما عرفه فى حياته الأولى؛ بل يعتز بما أبدعه البشر أمثاله، من شعر ونثر، وفكر وفلسفة، ونحت وتصوير، ورقص وموسيقى؛ يريد أن يجعلها زاده فى الجنة؛ على حين كان **ابن القيم** يصنع العكس، ليجعل الدين وحده زاده فى الدنيا؛ كأنما يريد أن يحول الدنيا إلى آخرة؛ كما يفعل بعضهم الآن!

*** *** ***

رجاء فى القصيدة شخصية رومانتيكية؛ وأعتقد أنه كان كذلك فى حياته الواقعية؛ فهو أولا فتى قروى، نشأفى أحضان الطبيعة، قبل أن ينتقل ليعيش فى المدينة؛ دون أن ينتمى إليها! فهو يحلم بمدينة أخرى، مدينة فاضلة؛ أو يوتوبيا يسودها الحب والعدل، ولا يُقتلع فيها الشجر:

وكنتُ فتًى قرويًّا يخافُ المدينةَ..

لم يمتلِكْ مِن حطامِ الحياةِ متاعًا

ولم يَعرفِ اليأسَ بَعدُ...

و**رجاء** يعود فى كل شىء إلى فطرته: [كنت وما زلت أصدر عن فطرتى]. والفطرة تطالعنا فى القصيدة بصورها المختلفة، وأسمائها المترادفة؛ فهى السليقة، والبديهة، والمعرفة الباطنية؛ أى المعرفة الحقيقية كما كان **جان جاك روسو** يراها، ويميز بينها وبين المعارف المكتسبة، التى نتلقاها عن المجتمع، فلا تغير إلا ظاهر الإنسان؛ وربما أفسدته، لأنها تبعده عن الطبيعة وتلحقه بالمجتمع؛ والمجتمع مَفسَدة، كما كان **روسو** يقول؛ لهذا يظل **رجاء** فى القصيدة يكلم نفسه، ويستفتى قلبه: ***[أحدث نفسى لتنسَى- وكنت أقول لنفسى- وصوت من العمق بالصدق ألزمنى.. قلت فلتلتزم يا رجاء!]***.

وفى هذا الضوء، يكتسب موت **رجاء** معنى العودة إلى الأصل؛ فالحياة الدنيا، أو الحياة فى المدينة؛ اغتراب وجحيم بالمعنى الرومانتيكى، أو بالمعنى الوجودى؛ الذى يعتبر المجتمع خطرا يهدد الوجود الفردى الأصيل: الجحيم هو الآخرون! الموت إذن خلاص، خلاص من المرض، وتحرر من الخطيئة، وعودة إلى الفردوس

المفقود؛ إلى صوت الأب ووجه الأم، أى إلى أصل النطفة وبيت الطفولة:

حيثُ لا مَرَضٌ يَعتَرِى.. لا حَرَضْ!

أَسبَحُ الآنَ خَلْفَ حُدودِ الزَّمانِ..

قُيودِ المَكانِ..

أشاهدُ ما كنتُ لمْ أتخيَّلْهُ!

أَترُكُ رُوحِى لكىْ تَتنَزَّهَ

حيثُ تُريدُ

وتَنشَقَ رِيحَ الجِنانِ..

لقد وجد رجاء فى نهاية المطاف، مدينته الفاضلة التى كان يحلم بها؛ حيث الحب دين، والدين حب وحرية:

أحِبُّوا.. وصَلُّوا

فإن الإلَهَ يُحبُّ صَلاةَ العِبادِ

وليسَ يُحبُّ صلاةَ العَبيدِ!

وقصيدة **حسن طلب** تذكرنا كما قلت، بغيرها من الأعمال الشعرية والنثرية، التى دارت حول الصعود أو الهبوط إلى العالم الآخر؛ ليس فقط بالموضوع المشترك، بل أيضا بالصور والرموز المقتبسة من هذه الأعمال.

إن المقطع الرابع، الذى نرى فيه بطل القصيدة وهو فى شبه غيبوبة، يتطوح عبر المسافة ما بين جهله ومعرفته؛ مقتبس من كلام المتصوفة الذين أسكرهم القرب، فغابوا عن أنفسهم واقتربوا من الفناء. وفى المقطع التاسع عشر، صورة من العقائد الجنائزية المصرية القديمة، كما جاءت فى كتاب الموتى؛ وهى صورة (البا)، التى تخيلها قدماؤنا فى هيئة طائر له وجه المتوفَّى؛ وهذا ما نجده فى قول **حسن طلب** على لسان بطل القصيدة:

وأنا الآنَ أصعَدُ مُستشفِيًا

وأغذُّ الخُطَى

بلْ أرفرِفُ مُستهدِيًا بجَناحَىَّ..

مثلَ القَطَا

أما صور الجنة فى المقاطع الأخيرة من القصيدة؛ فمقتبسة مما جاء عنها فى المرويات الإسلامية، وفى (رسالة الغفران)، وفى (شاطئ الأعراف)؛ حيث نرى الشجرة من أشجار الجنة، تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل ظليل، وحيث نرى الملائكة يدخلون على الشعراء من كل باب؛ يقولون لهم: [سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار]. ونرى إوز الجنة ينزل على أهلها، وهم يشربون من خمرها؛ فتصبح الإوزات جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة، وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يلتمس من الملاهى:

وأنا اليومَ أرفلُ فى الحُللِ السُّندُسيَّةِ

والجنَّةُ اليومَ مَملكَتِى

*** *** ***

فإذا انتقلنا من موضوع القصيدة، إلى فن القصيدة؛ فسوف نجده كما نعرفه فى قصائد **حسن طلب** كلها. القصيدة مقاطع أو دوائر؛ ربما فتح الشاعر بعضها، وأغلق بعضها؛ لتنتظمها الفكرة، أو الموضوع الذى تدور حوله القصيدة كلها؛ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. والصور تسجيل للواقع، بأسمائه الصريحة المعروفة أحيانا؛ وتفكير وتوليد أحيانا أخرى؛ حيث **رجاء** هو البطل، و**لميس** و**سميح**

ولداه فى الواقع كما هما فى القصيدة. وسواء سجل **حسن طلب** أو فكر؛ فعنايته بلغته عناية فائقة، تذكرنا أحيانا **بالمعرى** فى (اللزوميات). وهى تتمثل قبل كل شىء فى إيقاعاته المضبوطة، وقوافيه الداخلية التى يكون بعضها صوتا، وبعضها صدًى.

وهذا هو الغناء الذى يختلط بالبكاء.. !

بقلم:

أحمد عبد المعطي حجازي

أعمال أخرى للشاعر

دواوين شعر:

- وشم علي نهدي فتاة؛ دار أسامة، القاهرة ١٩٧٢. ط. ٢ بعنوان: (الوشم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥.
- سيرة البنفسج؛ دار كاف نون، القاهرة ١٩٨٦. ط. ٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢،

(ضمن كتاب: قصائد البنفسج والزبرجد) .

- أزل النار في أبد النور؛ دار النديم، القاهرة ١٩٨٨. ط. ٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣.
- زمان الزبرجد؛ دار الغد،القاهرة ١٩٨٩. ط. ٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٢. (ضمن

كتاب: قصائد البنفسج والزبرجد).

- آية جيم؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ . طبعة ثانية: دار التلاقى، القاهرة ٢٠٠٨.
- لا نيل إلا النيل؛ دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٣. طبعة ثانية: مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٧.
- مواقف أبى على وديوان رسائله وبعض أغانيه؛ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢.
- حجر الفلاسفة، مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦.
- عاش النشيد؛ مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٦.
- متتالية مصرية؛ مركز المحروسة للنشر، القاهرة ٢٠٠٧.
- يكتب الباه.. يقرأ الجسد؛ دار العين، القاهرة ٢٠٠٩.
- إنجيل الثورة وقرآنها: ١- آية الميدان؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١١.
- إنجيل الثورة وقرآنها: ٢- إصحاح الثورة؛ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٢.

- قربان لإله الحرب: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة ديوان الشعر العربى- ٥)، القاهرة ٢٠١٢.
- باب الصبابات.. فصل الخطاب، دار المعارف، (سلسلة زدنى شعرا- الكتاب الأول)، القاهرة ٢٠١٥.
- طهطا المهد.. طهطا اللحد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٦.
- شموس القطب الآخر، دار المها ..... القاهرة ٢٠١٦.

مختارات شعرية:

- بستان السنابل؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠.
- نزهة في ظلام الضوء؛ دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة ٢٠٠٨.

الأعمال الشعرية الكاملة:

- ديوان حسن طلب (المجلد الأول)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٤.

- ديوان حسن طلب (المجلد الثانى)، المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة ٢٠١٦.
- ديوان حسن طلب (المجلد الثالث) المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠١٦.

مختارات شعرية:

- بستان السنابل؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠.
- نزهة في ظلام الضوء؛ دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة ٢٠٠٨.

شعر مترجم:

- هذه كربلاء وأنا لست الحسين؛ ترجمة إلى الفرنسية: د.كاميليا صبحي، دارعين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة ٢٠٠٥. (مع ترجمات أخرى متناثرة لبعض القصائد إلى الإنجليزية والإيطالية والإسبانية واليونانية).

دراسات فلسفية:

- المقدس والجميل؛ مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠١.
- أصل الفلسفة؛ دارعين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة ٢٠٠٣. الطبعة الثانية: ٢٠٠٧.
- مصادرة الفن باسم الدين والأخلاق والسياسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الفلسفة)، القاهرة ٢٠١٣.

كتب مشتركة:

- حكمة المصريين؛ تحرير: محمد السيد سعيد، مركز القاهرة لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٩.
- شاعر مئذنة الدمع؛ إعداد: حلمى سالم، المجلس الأعلى للثقافة ـــــ لجنة الشعر، القاهرة ٢٠٠٧.
- فلسفة الفن والوعى الجمالى؛ المعهد العالى للموسيقى الفرعونية، القاهرة ٢٠٠٧.

إشراف وتحرير ومراجعة:

- الشعر الأفريقى المعاصر (سلسلة الشعر العالمى)؛ المجلس الأعلى للثقافة ـــ لجنة الشعر،القاهرة ٢٠٠٣.
- ليوتار؛ جبمس وليامز، ت. إيمان عبد العزيز،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣.
- محمود سامى البارودى (مختارات)؛ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤.
- مملكة أحمد عبد المعطى حجازى (مقالات ودراسات)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦.
- نازك الملائكة (مختارات شعرية)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتاب "إبداع"،العدد ٤، القاهرة ٢٠٠٧.
- هكذا تكلم فؤاد زكريا (مختارات)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتاب "إبداع"، العدد ١٢، القاهرة ٢٠١٠.
- فلسفة اللذة والألم لإسماعيل مظهر؛ دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة ٢٠١٠.
- نبى اللغة (المعرى فى اللزوميات)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتاب "إبداع"، العدد ٢٤، القاهرة ٢٠١٢.

- طه حسين: ثورة حية وحياة ثائرة (مختارات)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، كتاب "إبداع"، العدد ٢٩، القاهرة ٢٠١٤.

كتب عن الشاعر:

- ماهية الشعر(دراسات في شعر حسن طلب)؛ تحرير وتقديم د. سعيد توفيق، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩.
- شعر حسن طلب (دراسة في الإيقاع)، د. عزة محمد جدوع، دار ابن سينا، القاهرة ٢٠٠٢.

قيد النشر:

- إنجيل الثورة وقرآنها: ج. ٣- (سورة الشهداء).
- كفوا عن التضليل (ديوان شعر).
- لا شك فى البطل (ديوان شعر).
- شىء عبر لا شىء (محاورة شعرية فلسفية).
- فكرة الرمز (دراسة فلسفية)
- فكرة القيمة (دراسة فلسفية).

الفهرس

م	اسم القصيدة	رقم الصفحة
١	مرثية كل البشر	٣
٢	لِقاءُ عاشِقيْن	٧
٣	أَرْبَعُ لَوْحاتٍ رَمادِيَّة	١٠
٤	مَن يملِكُ البُشرَى؟	١٦
٥	يَقِينُ الأَمَان	٢٢
٦	زَادُ المَعَاد	٣١
٧	خَتْمُ الزَّاد	٧١
٨	إحالات	٧٤
٩	فِلَسطِينُ التِى ستَجِىء	٧٥
١٠	((القصيدة.. وبطل القصيدة)) قراءة نقدية لقصيدة: "زاد المعاد"	٨٢